تقديم الكتاب

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد الروكي

من العلماء والمفكرين رجال لا يجود الزمان بمثلهم إلا قليلا ، منهم الأستاذ الرئيس الزعيم محمد علال الفاسي ، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، وآتاه الله من المواهب والقدرات العلمية والفكرية والسياسية ما يعز نظيره ؛ لقد تربى في أحضان أسرة مسلمة عريقة في العلم والدين ومكارم الأخلاق ، ونشأ بين يدي مشايخ القرويين وعلمائها الصادقين المخلصين ، ونهل بها من علوم الدين واللغة ما روَّى فكره وعقله ، وعكف على قراءة أمهات الكتب ونفائس التراث الإسلامي ، ودراسةِ سِيَر الأعلام وشموس الأمة ، الذين كان لهم فيها تأثير وتوجيه ، أمثال الإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والأشعري ، وابن العربي والغزالي وابن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وابن خلدون ، وغيرهم من مصابيح هذه الأمة وسُرُجها وأقمارها ، فارتوى من معين أفكارهم وينبوع حِكَمهم ، واقتبس من أنوار معارفهم ، وتوج ذلك تصديه للتدريس داخل القرويين وخارجها وهو في ريعان شبابه ، وزاده حنكة وخبرة وتجربة عملية إلى رسوخه في العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية العالية : كثرةُ رحلاته وتجواله في العالم العربي والغربي واتصالُه بكثير من الشخصيات البارزة في الشرق والغرب ، فضلا عن معاناة النفي التي اصطلى بنارها نحوا من عشرين سنة من عمره . إن هذه المعالم وهذه المحطات التي مر بها في حياته جعلت منه رجلا فذا فريدا في زمانه ، وهيأته ليكون بحق رائد الفكر الإسلامي المعاصر ، ونموذج العالم الرباني القائد ، ومثال الزعيم

السياسي الراشد ، الذي أسس مدرسة تخرج منها الرجال ، ودارت في فلكها الأجيال .

لقد نشأ محمد علال الفاسي منذ نعومة أظفاره محبا لبلده غيورا على وطنه وقومه وأهله ، مقاوما للاحتلال الأجنبي بفكره ولسانه وقلمه ، مطالبا باستقلال بلده وتحريره من ربقة الاستعمار ، ساعيا إلى وحدة المغرب العربي وتوحيد الأمة الإسلامية ، مناديا بتحرير الصحراء المغربية والتمسك بثوابت الوطنية .

نعم ، ظهرت أصول هذه المعاني السامية وتبدت مخايل هذه القيم العالية في نفس علال الفاسي منذ طفولته ونشأته الأولى ، تستطيع أن تقف على ملامحها وجذورها في قصيدته البائية الرائعة التي يقول في مطلعها :

أَبَعْدَ مرورِ الخمسَ عشْرةَ ألعبُ وأَلْهُو بِلَذَّاتِ الحياةِ وأَطربُ

وقد عارض بها قصيدة الشاعر الكُميت التي قال في مطلعها :

طربتُ وما شوقاً إلى البِيض أطربُ ولا لعبا مني وذو الشيب يلعبُ

لكن المتأمل في القصيدتين يجد أن الشاعر الكميت لم تَفِضْ قريحته ببائيته المليئة بالحِكم إلا بعد أن اشتعل رأسه شيبا ، بينما فاضت قريحة الفتى الطموح علال ببائيته ـ المليئة بالحكم أيضا ـ وهو في ريعان فتوته وبداية طريقه ، لكنها المواهب اللدنية ، والفتوحات الربانية ، والملكات والإشراقات النورانية ، يؤتيها الله من يشاء من عباده الصادقين .

إن لشخصية علال الفاسي مقومات كثيرة ومكونات عديدة ؛ فهو العالم المفكر ، والأديب الشاعر ، والسياسي المحنك ، والزعيم الخبير ، والرائد

البصير ، والمرشد الخريت ، والمجاهد الصبور ، والمناضل الغيور .

وإنْ أنس لا أنسى يوم ألقى علينا محاضرته الفذة «المولى إدريس الأكبر ، وثيقة تاريخية لم تنشر» ، في بداية السبعينيات ، وقدَّمه فيها أستاذنا العلامة سيدي عبد الحي العمروي . وأذكر أن مما جاء في تقديمه البليغ الرائع ما معناه : إنني لا أدري كيف أقدم لكم هذا الرجل ، هل أقدمه عالما؟ أم أقدمه أديبا شاعرا؟ أم زعيما سياسيا ؟ وذكر جوانب أخرى من شخصية المحاضر ، ثم تمثل بقول الشاعر :

تكاثرتِ الظباءُ على خِراشٍ فما يدري خراشٌ ما يَصيد

وقد كان لهذا التقديم أثر بالغ في التشوق إلى المحاضرة والتشوف إلى المحاضر ، الذي أمتعنا بمحاضرته العلمية ، وأطلعنا فيها على حقائق لم نكن نجدها فيما قرأناه من كتب تاريخ المغرب .

إن علال الفاسي لم يعش لنفسه ولا لأسرته ، بل عاش لأمته ولوطنه ، ووهب حياته لعقيدته ومبادئه وقيمه ، وأفرغ جهده ووسعه في صناعة الرجال وبناء المجتمع المتماسك المتضامن الذي يدافع عن قضيته . وكأنما أحس ~ بدنو أجله حينما قال في إحدى أواخر قصائده :

ولئن قضيت على الطريق فحبذا ما نلت من شرف الشهادة في
ولسوف يُكمل ما بدأتُ أحبتي فَهُمُ الضمان لكل خير يُعْتَمَلْ

ولقد كتب الناس عن الأستاذ علال الفاسي كتابات كثيرة ، ولكن معظمها يغلب عليه الاهتمام بالجانب السياسي والنقابي والحزبي والأدبي ... أما علال الفاسي العالم المفكر ، فالكتابات في ذلك قليلة . وهي على قلتها تكاد تكون

قاصرة على الرسائل والأطروحات الجامعية ، التي لا يكاد يستفيد منها إلا خاصة الباحثين ، ولا يتأتى معها اطلاع عامة القراء والمثقفين على معالم شخصية علال الفاسي العلمية والفكرية .

وقد قيض الله اليوم لإبراز هذه المعالم رجلا يقدر الرجال حق قدرهم ، ويعرف للأئمة مكانتهم ، وينزلهم منازلهم ، إنه الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني ، الذي أتحفنا اليوم بكتابه القيم الشيق «علال الفاسي عالما ومفكرا» ، الذي أقدمه للقراء .

لقد قرأت الكتاب من الغلاف إلى الغلاف ـ قبل أن يخرج في طبعته النهائية ـ واستمتعت بقراءته غاية الاستمتاع ، وأعجبت بلغته العالية ، وحسن عرضه لسيرة علال الفاسي ، وإبراز جوانب شخصيته العلمية والفكرية .. وكيف لا وقد عاش الدكتور الريسوني مع فكر علال الفاسي زمنا ليس بالقليل ، عاش مع فكره باحثا ومدرسا ومؤلفا ، عاش مع فكره الذي استقاه من معين كتبه ومؤلفاته ، واعتمده في بحوثه ودراساته ، وفي دروسه ومحاضراته التي كان يقدمها لطلابه في مقاصد الشريعة ، فهو أجدر بأن يكتب عنه ويكشف للقراء عن حقيقة العالم المفكر في شخصية علال الفاسي .

لقد جاء كتاب «علال الفاسي عالما ومفكرا» في مقدمة وفصلين وخاتمة . أما المقدمة فقد نبه فيها المؤلف على أهمية شخصية علال الفاسي ومكانته في عالم الفكر المعاصر والحاجة إلى العناية به عالما ومفكرا فيما يقدَّم عنه من الكتابات والدراسات .

وأما الفصل الأول فقد عرض فيه زبدة سيرة علال الفاسي وخلاصة حياته ، وأصول فكره العلمي ، ونماذج من القضايا العلمية والفكرية التي وجه

اهتمامه إليها .

وأما الفصل الثاني فقد عرض فيه أهم مؤلفاته ووقف عند بعض نصوصها المشرقة ، معلقا وملخصا ، ومنبها فيها على ملامح العالم المفكر . وقد أحسن حين أثبت ضمن هذه النصوص المختارة نص رسالة علمية قيمة يفتقدها الباحثون اليوم لعدم إعادة طبعها ، وهي «الجواب الصحيح والنصح الخالص عن نازلة فاس وما يتعلق بمبدإ الشهور الإسلامية العربية» ، وهي نص علمي دقيق يكشف عن ملامح علال الفاسي الفقيه الأصولي المجتهد .

وقد ظل المؤلف في الفصلين معا موفقا فيما انتقاه من النصوص والقضايا ، حَسن العرض جيد التعليق والاستنباط ، غزير الإفادة والاستخلاص ، قوي اللغة جميل الأسلوب رشيق العبارة .. يُمتع القارئ فلا يمل ، ويفيده فلا يكل .

وأما الخاتمة فقد لخص فيها فكر علال الفاسي وأصوله التي قام عليها ومعالمه التي عرف بها ، وملامحه التي انفرد بها .

ولقد جاء الكتاب مفيدا في ذلك كله ؛ في مقدمته وفصليه وخاتمته . ولا شك أنه سيسد فراغا في بابه ، وسينعم القراءُ بقراءته ويستمتعون بمضامينه ولغته ، وكيف لا وقد نحته المؤلف من أعماق قلبه ، وصاغه من أغوار لحمه ودمه ، وكتبه بصدق ملموس وإخلاص محسوس .

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وكتبه محمد الروكي

جدة في ٨ رمضان ١٤٣٢هـ

الموافق ٨/ ٨/ ٢٠١١م

مقدمة

قديما قيل : لولا «عِياض» [١] ما ذُكر المغرب .

وفي العصر الحديث يمكننا أن نقول أيضا : لولا عَلَّال ما ذُكر المغرب .

فعلال الفاسي هو صوت المغرب في المشرق ، وخاصة في فترة التعريف بالمغرب وقضية استقلاله ، أواخر الأربعينيات وإلى منتصف الخمسينيات ، من القرن العشرين . وهو صاحب «حديث المغرب في المشرق» [٢] ، الذي جاب القاراتِ الخمسَ ـ وفي مقدمتها أقطار المشرق العربي ـ معَرِّفا بالمغرب ، مدافعا عن حقه ومطلبه بالاستقلال .

ورغم تزايد أعبائه ومسؤولياته الداخلية بعد استقلال المغرب ، فقد ظل محافظا على علاقاته ومشاركاته العلمية والسياسية عبر العالم ، وخاصة في أقطار العالم الإسلامي . لقد ظل دائم الترحال كثير الاتصال . وهو ما جعل المغرب من خلاله مذكورا بدرجة ومكانة لولا علال لم تكن .

وإلى اليوم ، إذا ذكر علماءُ المغرب المعاصرين ـ خارج المغرب ـ فهو أول من يذكر ، وخاصة بفضل كتابه الرائد الذائع «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» .

ومن المعلوم أن علال الفاسي كان ـ في آن واحد ـ عالما مفكرا ، وزعيما

---

(١) هو الفقيه المالكي الشهير أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته . كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم . ولي قضاء سبتة ، ومولده فيها ، ثم قضاء غرناطة . وتوفي بمراكش مسموما سنة ٥٤٤هـ .

(٢) سيأتي التعريف بهذا الكتاب في الفصل الثاني .

سياسيا . فهو ـ كما يقول أحد تلاميذه ـ قد أوتي «الجمعَ بين الفكر والسياسة ، والتعمقَ فيهما معا على حد سواء ، والمَسكَ بحبليهما دون أن يختل التوازن . وبتعبير أدق : القدرة على الجمع بين الفكرة والكفاحِ من أجل تطبيقها والدفاع عنها والجهاد في سبيلها ، بكل الوسائل الممكنة وعلى مختلف المستويات» [١] .

ويصفه الأستاذ عبد القادر الإدريسي ـ وهو تلميذ آخر من تلاميذه ـ بأنه يتميز بين نظرائه من العلماء والمفكرين بكونه «جمع بين الاجتهاد الديني والتنظير الفكري والإبداع الأدبي ، وبين العمل السياسي الوطني ومقاومة الاستعمار والكفاح من أجل تحرير الوطن وتحرير المواطنين من التخلف والتبعية والتراجع الحضاري» [٢] .

غير أن عناية الناس بعلال الفاسي الزعيم السياسي الوطني ، هي أضعاف عنايتهم به بوصفه عالما ومفكرا . ففي بلده المغرب ، لا يكاد يذكر إلا بلقب «الزعيم علال» ، أو «الرئيس علال» [٣] ، وهما صفتان سياسيتان . ويرتبط ذكره أكثر ما يرتبط بالكفاح الوطني لأجل الاستقلال ، منذ فترة الدراسة بالقرويين وما تخللها من تحركات طلابية مناوئة للسياسة الفرنسية ، مرورا بمعركة الظهير البربري [٤] ، ثم معركة ماء بوفكران [٥] ، فالنفي إلى

---

(١) من تقديم الدكتور عبد العلي الودغيري لكتاب «أعلام من المغرب والمشرق» ، وهو مجموعة مقالات لعلال الفاسي ، ص٥ .

(٢) علال الفاسي قمة من المغرب ، ص١٨ .

(٣) الرئيس هنا تعني رئاسته لحزب الاستقلال ، وذلك منذ تأسيسه إلى وفاة علال سنة ١٩٧٤ . ولم يَتخذِ الحزب رئيسا له بعد علال ، وإنما اقتصر على منصب الأمين العام ، لتبقى صفة «الرئيس» خاصة بعلال ~ .

(٤) سيأتي الحديث عنه لاحقا .

(٥) في سنة ١٩٣٧ أقدمت سلطات الاحتلال الفرنسي على تحويل جزء من مياه «وادي بوفكران»=

الغابون ... إلى أن نصل إلى مرحلة الاستقلال وما بعد الاستقلال ، وما شهدته من معارك ونضالات ، وما تسمت به من تحولات وصراعات سياسية ، وأحيانا دموية . وفي كل هذا فعلال هو الزعيم ، وهو الرئيس ، وهو القطب ... فهذه هي الصورة الأكثر حضورا لعلال الفاسي في أذهان المغاربة ، من سياسيين ومثقفين وعامة . مع أن هذه الصورة السياسية ، الوطنية والحزبية ، هي نفسها آخذة في الخفوت والتقلص في ذاكرة الأجيال الجديدة . أما الصورة العلمية والفكرية للزعيم علال ، وما تزخر به من ضروب الجهاد والاجتهاد ، فهي باهتة ومهملة منذ البداية!

وإن الجهل بالتراث العلمي والفكري لعلال الفاسي لهو خسارة كبيرة للمغرب وأهله أولا ، وللأمة الإسلامية ثانيا . ولكنه ـ بصفة خاصة ـ خسارة فادحة للحركة الإسلامية المعاصرة ، سواء في المغرب أو في غيره من بلدان العالم الإسلامي . فكثير من الأفكار والاجتهادات التي لم تصل إليها الحركة الإسلامية بعد ، أو لم تصل إليها إلا بعد جهد جهيد وتخبط طويل ، كان علال الفاسي قد حسمها و كتبها وحاضر فيها قبل ذلك بأربعين سنة أو خمسين سنة . وحين أقرأ اليوم كتب علال ، وأقف على همومه وأفكاره ومعاركه وصيحاته ، منذ أواخر الأربعينيات إلى أوائل السبعينيات ، أجدني أقول : لقد كان علالٌ أمةً وحده ، فياليتني كنت معه .

لهذا وذاك اخترت في هذا الكتاب أن أصرف عنايتي إلى «علال الفاسي

= المجاور لمدينة مكناس ، إلى ضيعات المعمرين الفرنسيين وإلى المرافق الفرنسية ـ العسكرية والمدنية ـ بالمدينة ، على حساب سكان المدينة . فثار الأهالي ، وحدثت مظاهرات واضطرابات بمدينة مكناس يومي ١و٢ سبتمبر . وهي الأحداث التي شكلت السبب المباشر لنفي علال الفاسي وغيره من زعماء الحركة الوطنية آنذاك ، إلى مناطق مختلفة بالمغرب وخارجه .

العالم المفكر» ، بغية إعطاء هذا الجانب من شخصيته وجهاده بعضا من حقه ، ولإخراج علال من الدائرة السياسية الضيقة ، ومن الدائرة الحزبية الأضيق . فعلال الفاسي بكل نضالاته ومناصبه السياسية ، لا يكاد يتجاوز وطنَه المغرب . وأما زعامته الحزبية فتنحصر في حزب الاستقلال ، ولعلها قد جلبت له من الخصوم والأعداء أكثر مما جلبت له من المؤيدين والأنصار . أما علال الفاسي العالم المفكر ، فهو أحد كبار العلماء المجددين ، وأحد المفكرين البارزين ، على صعيد العالم الإسلامي كله . بل هو أحد المفكرين العالميين بإطلاق .

وقد جعلت الكتاب في مقدمة (هي هذه) ، وفصلين ، وخاتمة .

خصصت الفصل الأول للتعريف بحياة العلامة المجاهد الأستاذ علال الفاسي ، ومهدت لهذا التعريف بتقديم نبذة وجيزة عن حالة المغرب في زمن علال الفاسي . ثم عرضت نماذج من أفكاره واجتهاداته العلمية المتميزة .

وخصصت الفصل الثاني للتعريف بأهم مؤلفاته وعرض خلاصات لمحتوياتها .

وتضمنت الخاتمة تلخيصا وتذكيرا بأهم الخصائص والسمات التي تميز بها فكر علال الفاسي وفقهه واجتهاده في علوم الشريعة .

ورغم الجهد الكبير الذي بذلتُه لأجل إعداد هذا الكتاب الصغير [1] ، فلا أدعي أنني وفيتُ الرجل حقه ولا قريبا من حقه ، وإنما أسهمت في ذلك بما تيسر لي ، إنصافا لهذا العالم المتميز ، وتنويرا للأجيال المتعاقبة ، وخدمة

(١) الجهد الكبير سببه وجودي خارج المغرب حيث يوجد كل ما يتعلق بعلال الفاسي ، مما ضاعف من الجهد والوقت انتظارا للحصول على ما أحتاجه للبحث .

للإسلام والمسلمين .

وإذا كنت لا أخفي تقديري البالغ لهذا العالم الكبير ، ولا أخفي موافقتي له في مجمل توجهاته واجتهاداته وآرائه ، فهذا لا يعني بالضرورة أنني أتبنى جملة وتفصيلا كل ما سأعرضه من ذلك . فقد يعنُّ لي شيء من الاختلاف والتحفظ هنا أو هناك ، ولكني غالبا لا ألوي عليه ولا أقف عنده ، لأن ذلك ليس من غرضي في هذا الكتاب ، وإنما غرضي أساسا هو التعريف بعلال وبعطاءاته العلمية ونفائسه الفكرية .

وأود قبل طي هذه المقدمة أن أتقدم بالشكر والعرفان لكل من ساعدوني في إنجاز هذا العمل ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور عبد العلي الودغيري ، الذي أمدني بهدايا وإفادات ثمينة من مكتبته ومن ذاكرته ، والأستاذ الدكتور محمد الروكي الذي تفضل بمراجعة الكتاب وتسجيل ملاحظاته وتنبيهاته القيمة عليه ، والدكتور محمد أحمين ، الذي أفادني بعدد من اقتراحاته وخدماته .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

جدة في ٢٢شعبان ١٤٣٢/ ٢٣يوليو ٢٠١١م